ربّهم بقبول حسن ؟ وهل هم مطمئنّون إلى أنّ مصيرهم إلى الجنّة وأنّهم قد نجوا من النّار ؟ لا . إنّهم رغم اجتهادهم في العبادة متأسّون بسيّد الخلق صلّى اللّه عليه وسلّم الّذي صرّح بأنّه إنّما يدخل الجنّة إذا تغمدّه اللّه تعالى برحمته وليس بعمله . إنّ سيّد الخلق الّذي يعينه اللّه تعالى في كلّ شأن من شؤونه ، بما في ذلك العبادة ، يصرّح بهذه الحقيقة ، فما حال الأتباع العاجزين المقصّرين ؟ إنّهم ينبغي أن يكونوا أكثر اعترافاً بالعجز وأشدّ خوفاً وإشفاقاً ، وإلى ذلك أشارت الآيتان الكريمتان التّاليتان في وصف عباد الرّحمن .

عباد الرّحمن مشفقون من عذاب جهنّم

قال تعالى : ﴿ **والّذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراماً ، إنّها ساءت مستقرّاً ومقاماً** ﴾ .

يتحدّث هؤلاء العباد عن جهنّم وعذابها في لهجة العارف بها لما وصل إليهم من معلوماتٍ أكيدة عنها . فطبيعة العذاب أنّه دائم كالغريم الممسك بخناق غريمه ، وطبيعة جهنّم أنّها بئست المستقرّ والمقام ، لأجلٍ محدودٍ أو غير محدود .

ومن البديهيّ أن يشفق هؤلاء العباد من عذاب جهنّم وأن يدعوا اللّه عزّ وجلّ أن يصرف عنهم جهنّم وعذابها ، وكيف لا يُشْفِق هؤلاء العارفون ، وقد نصّ القرآن الكريم على أنّ كلّ نَفْسٍ ستعبر الصّراط الممدود على جهنّم . وكيف لا يردّد كلّ مؤمنٍ مع عبد اللّه بن رواحة الشّاعر الصّحابيّ المؤمن القول : كيف بالصَّدَرِ بعد الورود ، بعد أن وقف في سورة مريم بشأن عبور النّاس الصّراط الذي تلك صفته ، على طريقةٍ من التّعبير تخلع أكثر الأفئدة رسوخاً ، قال تعالى[1] : ﴿ **وإن**

---

(١) آية ، ٧١ ، ٧٢ .

منكم إلاّ واردها كان على ربّك حتماً مقتضيّاً ، ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونذر الظّالمين فيها جثيّاً﴾ .

وحيث إنّ هؤلاء العباد يطمعون أن يستجيب لهم ربّهم ، ويغفر لهم خطاياهم ، وحيث إنّه ليس ثمّة يوم القيامة من دار ، سوى الجنّة أو النّار ، فكأنّ إشفاقهم من جهنّم ، وطمعهم ، أن يستجيب لهم ربُّهم بأن يصرف عنهم عذابها بالكليّة ، معناه أنّهم يدعون اللّه تعالى ضمناً ، أن يتغمّدهم برحمته ، فيدخلهم الجنّة مَنّاً منه وفضلاً ، بعد أن يمتّن عليهم ويتفضّل بغفران ذنوبهم ، وستر عيوبهم ، وقبول أعمالهم الصّالحة جل وعلا .

وبديهيّ أنّ هؤلاء العباد ، لخوفهم الشّديد من عذاب جهنّم ، يضربون المثل الأعلى في الحزم وعدم الغفلة والاجتهاد في عمل الصّالحات والحرص الدّائم على اجتناب ما نهى اللّه تعالى عنه . وتلك من أهمّ صفات المؤمنين قال تعالى[1] : ﴿**إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون . والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون . والّذين هم بربّهم لا يشركون ، والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلَةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ، ولا نكلّف نفساً إلاّ وسعها ولدينا كتابٌ ينطق بالحقّ وهم لا يظلمون﴾** .

وهؤلاء العباد لهم أسوة حسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلّم الّذي كان أتقى العباد وأخشاهم للّه وهو الّذي غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر .

---

(١) سورة المؤمنون ، ٥٧ ـ ٦٢ .

عباد الرّحمٰن لا يُسْرفون ولا يقترون

وإذا تساءلنا عن سلوك عباد الرّحمٰن في الحياة من النّاحية الاقتصادية ، تبيّنّا أنّهم خير مثالٍ للأمّة الّتي أراد اللّه تعالى لها أن تكون أمّة وسطاً . ومن أهم المظاهر الّتي يتجلّى فيها ذلك المذهب ، الإنفاق . وإلى ذلك أشار قوله تعالى في وصف عباد الرّحمٰن : ﴿ **والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾ .

والآية الكريمة تمرّ على الإنفاق مرّاً هيّناً باعتباره حقيقةً في ذاته يصادفها كلّ إنسان ، وتتجاوزه إلى وصف هذا الإنفاق . وبما أنّ الإنفاق موقفٌ إيجابيّ بالقياس إلى البُخْل الّذي يُعْتَبَرُ سلبيّاً ، فإنّ المنهج الوسط الّذي يُحَبّذه الّدين الحنيف ، عبّرت عنه الآية الكريمة بالتّحوّل إلى تقييد إيجابية الإنفاق بقيود العقل والمصلحة ، ورسم الغاية الّتي ينبغي ألاّ يتجاوزها الإنسان ، بل الّتي ينبغي ألاّ يصل إليها أو يدنو منها . ولهذا نهت الآية الكريمة عن الإسراف في الإنفاق لأنّه سبب الآفة الّتي ينتهي إليها الكريم إن لم يتصرّف بحكمة ، وهي آفة الفقر . وقد راعت الآيتان الكريمتان من سورة الإسراء هذه الظاهرة نفسها ، قال تعالى[1] : ﴿ **وآتِ ذا القُرْبى حقّه والمسكين وابْنَ السَّبيلِ ولا تبذّر تبذيراً * إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشّياطين وكان الشّيطان لربّه كفوراً** ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة قد نهت عن الإسراف في الإنفاق الممثّل لأقصى غاية الإنفاق ، فقد كان من الضّروريّ أن تنهي عن الإقتار الممثّل لأقصى غاية الاقتصاد في الإنفاق ، لأنّ الإقتار ، وهو

---

(١) آية ، ٢٦ ، ٢٧ .

أحد الجانبين المتطرّفين ، من الجائز أن يكون ردّ فعلٍ للنّهي عن الإسراف الممثّل لأوّل الجانبين ، وإذا كان المذهب الوسط المطلوب ، وهو الاعتدال في الإنفاق ، يمكن أن يُفْهَمَ ضِمْناً ، تماماً كما فهم في قوله تعالى من سورة الإسراء[1] : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ فإنّ الآية الكريمة هنا تصف سلوك عباد الرّحمٰن الحميد في الإنفاق ، وتشيد به ، وتحبّب فيه ، وتدعو إليه . ولهذا هي نصّت صراحةً على أنّه المذهب المعتدل الّذي يتوسّط بطبعه الإسراف والإقتار . قال تعالى : ﴿ **والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾ .

عباد الرّحمٰن لا يدعون مع اللّه إلٰهاً آخر

حينما نتأمل هذه الصّفة الّتي نفتها الآية الكريمة عن عباد الرّحمٰن ، وأثبتت ـ بالتّالي ـ ما يقابلها ، نتبيّن أنّ هذا المقابل ، وهو عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له ، هو الهدف الّذي من أجله خلق اللّه تعالى الخلق . قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون** ﴾ وقال[3] : ﴿ **تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ * وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً** ﴾ .

وحينما تنفي الآية الكريمة الإشراك باللّه تعالى وتثبت توحيده عزّ وجلّ ، فإنّها تنبّه إلى خطورة هذه المسألة وضرورة أخذ الجميع الحذر

---

(١) آية ، ٢٩ .

(٢) سورة الذّاريات ، ٥٦ .

(٣) سورة الإسراء ، ٤٤ .

ممّا لا تُحمد عُقْباه ، فاللّه تعالى لا يغفر أن يُشْرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، كما جاء في القرآن الكريم ، وحينما يدعو الإنسان اللّه تعالى وحده ويفرده بالعبادة ، فإنّه يكون قد حقّق الهدف الّذي من أجله خلقه اللّه تعالى وأرسل الرّسل ، ويكون هذا الإنسان قد أثبت كذلك أنّه انتفع ممّا منّ اللّه تعالى به عليه من نعمة العقل والإدراك والتّمييز وتمشّى مع طبيعة الفطرة الّتي فطر اللّه تعالى النّاس عليها ، بأن ساعد على إزالة العوائق عن طريق هذه الفطرة الغاية في الشّفافية ودقة الإحساس ، فأتيح لها بذلك أن تكون في الصّورة الّتي أراد اللّه تعالى لها أن تكون ، فعملت عملها الّذي أثمر في إيمان صاحبها بأن لا إله إلا اللّه فأسلم للّه وانقاد له بالطّاعة وأفرده عزّ وجلّ بالعبادة . وهكذا يحقّق الإنسان الخليق بهذا الاسم معنى الآية الكريمة من سورة الرّوم[1] قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرة اللّه الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق اللّه ، ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون** ﴾ .

وكيف لا ينتهي الإنسان المنصف الّذي ينتفع من نعم اللّه تعالى عليه إلى أنّه لا إله إلاّ اللّه وإنّ كلّ ما في الوجود يقول بهذه الوحدانيّة من أكبر الأجرام إلى أصغرها الممثّلة في الذّرة . قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللّه لفسدتا فسبحان اللّه ربّ العرش عمّا يصفون** ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ **ما اتّخذ اللّه من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كلُّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان اللّه عمّا**

---

(١) آية ، ٣٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، ٢٢ .

(٣) سورة المؤمنون ، ٩١ ، ٩٢ .

يصفون ، عالم الغيب والشّهادة فتعالى عمّا يشركون﴾ . وعلى الرّغم من ذلك فإنّ اللّه سبحانه وتعالى قد بعث إلى كلّ أمّةٍ نذيراً . قال تعالى[1] : ﴿ وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلّم اللّه موسى تكليماً * رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للنّاس على اللّه حجّة بعد الرّسل وكان اللّه عزيزاً حكيماً ﴾ .

وبهذه المناسبة نقرّر أنّ مفهوم العبادة في الإسلام واسعٌ إلى أبعد درجات الاتّساع ، فكلّ عملٍ صالحٍ يقوم به المسلم وهو يريد بذلك رضا ربّه عزّ وجلّ فإنّه مثابٌ عليه ، بما في ذلك لقمة الطّعام الّتي يضعها المرء في في زوجته ، كما جاء في الحديث . وهكذا يتبيّن أنّ مفهوم العبادة في الإسلام شاملٌ لكلّ ما يصدر عن الإنسان من عبادةٍ وسلوك ومعاملة طيّبين ، وما دام الأمر كذلك ، فليس عجيباً أن تكون ثمّة درجاتٌ على المؤمن أن يحرص على الوصول إلى أعلاها والّتي عبّر عنها بالإسلام والإيمان والإحسان . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا ما جاء في سورة الحجرات من امتنان اللّه تعالى على البعض بأن هداهم للإيمان . والمعروف أنّ للإيمان ستّة أركان ، وهي الإيمان باللّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من اللّه تعالى ، كما أنّه يتكوّن من بضعٍ وسبعين شعبة تبدأ بشهادة ألاّ إله إلاّ اللّه

---

(١) سورة فاطر ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء ، ١٦٣ .

وتنتهي بإماطة الأذى عن الطّريق . وليس ببعيد عن أذهاننا تعريف المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم للإحسان حينما قال للسّائل عن الإحسان : هو أن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[1] وحينما يوقن المسلم أنّ اللّه تعالى معه أينما كان فإنّ هذا المسلم لن يصدر منه ، بإذنه تعالى ، إلّا ما يُسَرُّ به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلّا من أتى اللّه بقلبٍ سليم .

إنّ نفي آية الفرقان الكريمة صفة الشِّرك عن هؤلاء العباد إنّما هو دعوةٌ حارةٌ لتوحيد اللّه تعالى ، قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء * ومن يُشْرِكْ باللّه فقد ضلّ ضلالاً بعيداً** ﴾ .

عباد الرّحمن لا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ .

النّفس الإنسانية أغلى ثمناً . فليس في مقدور أيّ إنسانٍ أن يضع لها نهايةً إلّا بالحقّ . وقد بيّن الحديث النّبويّ الشريف ذلك الحق في قوله عليه الصّلاة والسّلام : لا يحلّ دم امريء مسلمٍ يشهد أن لا إله إلّا اللّه وأنّي رسول اللّه إلّا بإحدىٰ ثلاث : النّفس بالنّفس ، والثّيّب الزّاني ، والمفارق لدينه التّارك للجماعة[3] والمراد بالثّيّب ، الزّاني المحصن ، أي المتزوّج ، وبالتّارك لدينه المرتدّ . وقد بيّنت كتب الفقه أبعاد هذه القضايا بالتّفصيل .

وهكذا يتبيّن القيمة الغالية للنّفس الإنسانية . فليس من حقّ أحدٍ

---

(١) انظر هنا التجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصّحيح ١٣/١ .

(٢) سورة النساء ، ١١٦ .

(٣) التّجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصّحيح ، ١٥٢/٢ .

أن يضع حدّاً لحياة آخر إلّا بالحقّ وعن طريق الحكومة المأمورة بتطبيق أوامر الشّرع الحنيف ونواهيه . بل ليس من حق الإنسان نفسه أن يضع حدّاً لحياته هو ، لأنّ هذه الحياة ليست ملكاً لصاحبها ، إنّما هي ملكٌ للّذي خلقها في أحسن تقويم .

وحيث إنّ التّحرُّج من قتل النّفس المؤمنة ينبغي أن يشترك فيه كلّ النّاس ، وإن كان تحرّج عباد الرّحمٰن من ذلك أشدّ من غيرهم ، ففي إمكاننا أن نفهم من قوله تعالى عن هؤلاء العباد : ﴿ **ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ** ﴾ أنّ المراد لفت الانتباه بقوّةٍ إلى القيمة الغالية للنّفس الإنسانية ، فعلى كلٍّ أن يأخذ حذره من أن يتورّط ، في أيّة صورةٍ من الصّور ، في وضع نهايةٍ لحياة أخيه الإنسان ، فإنّ عذاب ذلك يوم القيامة شديد . ويكفي أن نعرف دليلاً على بشاعة الجرم ، أنّ القاتل المتعمّد ، يُبيح دمه للاقتصاص منه . وإذا كان قتل النّفس البريئة جريمةً غايةً في الشّناعة ، فإنّ الإحسان إلى هذه النّفس الإنسانيّة ، في المقابل ، عملٌ غايةٌ في النُّبل واستحقاق الثّواب عليه من أحكم الحاكمين . ألم يجيء في سورة المائدة[1] ، عقب نبأ ابني آدم واعتداء أحد الأخوين على الآخر بالقتل ظُلْماً وعدواناً قوله تعالى : ﴿ **مِنْ أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نَفْسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعاً ، ومن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعاً** ﴾ علام يدلُّ اعتبار قتل النفس البريئة الواحدة بمنزلة قتل النّاس جميعاً وإحياء النّفس الواحدة بمنزلة إحياء النّاس جميعاً ؟ يدلّ على القيمة الغالية للنّفس الإنسانيّة . أوليس الإيمان بضعاً وسبعين شعبةً أعلاها شهادة ألّا إله إلّا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق كما جاء

---

(١) آية ، ٣٢ .

في الحديث ؟ بلى . وعلام تدلّ آخر شعب الإيمان فضلاً عمّا سواها ؟ على القيمة الغالية للنفس الإنسانيّة ضِمْناً . بل إنّ في كلّ كبدٍ رطبة أجراً كما جاء في الحديث الشّريف عن الشّخص الّذي غفر اللّه تعالى ذنبه لأنّه سقى كلباً عطشان حتّى ارتوى[1] كما أن في الإساءة إلى كلّ كبدٍ وزراً . فقد دخلت امرأةٌ النّار في هرّةٍ حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشَاش الأرض كما جاء في الحديث الشريف أيضاً[2] وإذا كانت قيمة البهيمة غاليةً بهذه الدّرجة ، فكيف بالنّفس الإنسانيّة الّتي خلقها اللّه تعالى وكرّمها وفضّلها على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً .

والآية الكريمة الّتي تنصّ على أنّ عباد الرّحمٰن لا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ تقرّر حقيقة غاية في الأهميّة نستفيدها من الاستثناء في الآية الكريمة : ﴿**إلاّ بالحقّ**﴾ ويُفْهَمُ منها أنّ هؤلاء العباد أحرص الخلق على تنفيذ حدود اللّه تعالى ، لا تأخذهم فيه عزّ وجلّ لومة لائم ، ولا تأخذهم بالّذين وجب عليهم الحدّ رأفة في دين اللّه تعالى . وإذا كان هؤلاء يقتصّون من القاتل ومن كلّ من حلَّ دمه ، فمن باب أولى أن يكون هؤلاء العباد حريصين أيضاً على تطبيق كلّ حدود اللّه تعالى .

وهكذا يتبيّن أن الآية الكريمة تنوّه بقيمة النفس الإنسانية الغالية ، الّتي من حق اللّه تعالى وحده أن يضع نهايةً لها ، وتنوّه بضرورة تنفيذ حدود اللّه تعالى . على الأمّة أن تتعاون لتحقيق ذلك ، إلاّ يفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير . قال عزّ من قائل[3] : ﴿**ولكم في القصاص**

---

(١) التجريد الصّريح ، ١/١٤٤ . وانظر السّيرة ١/٤٦٠ .

(٢) صحيح مسلم ٢/٤٤٣ طبعة عيسى الحلبي .

(٣) سورة البقرة ، ١٧٩ .

حياةٌ يا أولي الألباب لعلّكم تتقون ﴾ ونحن نتبيّن دائماً وأبداً هذه الحقيقة حينما نقارن بين مجتمعين يحكم أحدهما بما أنزل اللّه تعالى ولا يحكم الآخر بذلك ، إنّ استتباب الأمن في المجتمع الأول يثير الدّهشة بقدر ما يثيرها انعدامه في المجتمع الثّاني .

عباد الرّحمن لا يزنون :

المظهر الثّالث من مظاهر الذّنوب الثّلاثة الكبار التي يفرّ من ارتكابها عباد الرّحمن جريمة الزّنى . وإذا كان عباد الرّحمن يهربون من لمم الذّنوب فمن باب أولى أن يفرّوا من جليلها ، فلا غفلة من جانبهم عن معرفة حقيقة التّوحيد والعمل وفق هذه المعرفة ، ولا انسياق مع النّفس الأمّارة بالسّوء ساعة الغضب فيتوّرطوا في قتل النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحق ، أو ساعة الميل إلى الأخذ بحظّهم من الدّنيا ، فيتورّطوا في جريمة الزّنى ، إنّ هؤلاء العباد ، بعونٍ من اللّه تعالى وتوفيق ، أبعد من أن يتورّطوا في ارتكاب لمم الذّنوب فَضْلاً عن جليلها . وكأنّ هذه الآية الكريمة ، تقصد لفت الانتباه بشدّة إلى شناعة هذه الكبائر . وبما أنّ كلّ إنسانٍ حريص بطبعه على ما ينفعه ، فكأنّ الآية الكريمة تخاطب كلّ واحدٍ بأنّ من أهمّ وسائل الفوز في الدنيا والآخرة أن يتجنّب بقوّةٍ هذه المجموعة من الكبائر ، وحينما يتغلّب المرء على الكبائر ، يسهل عليه ، بإذنه تعالى ، التّغلّب على الصّغائر .

إنّ هؤلاء العباد لا يزنون ، وإنّ كلّ إنسانٍ ذي نَفْسٍ تقيّةٍ كريمة يأبى أن ينزل إلى مستوى ذلك الصّغار . وما الّذي نستطيع نحن أن نضيف إلى ما أجمع عليه العقلاء ، من العواقب الوخيمة لجريمة الزّنى الّتي تفتك بالأفراد والأسر والمجتمعات والأمم ؟ ومن هو العاقل الّذي تخفي عليه تلك العواقب السّيّئة ؟ لا أحد . وعلى الرّغم من ذلك فقد

انتهى كثيرٌ من شباب المجتمعات غير الإسلاميّة وشابّاتها إلى نتيجةٍ غايةٍ في الخطورة ، ولكنّها طبيعيّة في ذاتها ، ردّ فِعْلٍ للإسراف في إعطاء النّفس هواها والحرص الدّائم على إطفاء سعار الشّهوة ولهيب الجسد . إنّ هذه النتيجة الخطيرة الّتي انتهى إليها الشّباب والشّابات هي أنّ الزّواج الصّحيح الطّاهر كلام فارغ ! والحجّة في ذلك هو عدم ضمان الوفاء من جانب الطّرف الآخر فيما لو تمّ زواج إذ من ذا الذي يضمن بأن يفي هذا لذاك وذاك لهذا ؟ حيث إنّه لا ضمان هناك ، فليس ثمّة ضرورةٌ للزّواج الّذي لا حاجة إليه أساساً ، والّذي يلوح أنّ شرّه أكبر من خيره ! ليت أقوامنا يعتبرون ويتعاونون على البرّ والتقوى ، عسى أن تتخلّص مجتمعاتنا الإسلاميّة بالكلّيّة من هذه الجريمة ، جريمة الزّنى ، الّتي ما انتشرت في مجتمع إلّا وفتّت في عضده وأنهكت قواه . قال تعالى[1] : ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ **وقال تعالى**[2] : ﴿ **وأنكحوا الأيّامى منكم والصّالحين من عبادكم وإمائكم * أن يكونوا فقراء يغنهم اللّه من فضله واللّه واسعٌ عليم * وليستعفف الّذين لا يجدون نكاحاً حتّى يغنيهم اللّه من فضله * والّذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً * وآتوهم من مال اللّه الّذي آتاكم * ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصُّناً لتبتغوا عرض الحياة الدّنيا ومن يكرههنّ فإن اللّه من بعد إكراههنّ غفورٌ رحيم** ﴾ .

جزاء مرتكبي الكبائر :

وما جزاء من يرتكب هذه الكبائر أو بعضها ؟ قال تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه**

---

(١) سورة الحشر ، ٢ .

(٢) سورة النّور ، ٣٢ ، ٣٣ .

مهاناً * إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسناتٍ وكان اللّه غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنّه يتوب إلى الله متاباً ﴾ .

إنّ جزاء من يرتكب هذه الكبائر أو بعضها ، أن يلقى يوم القيامة جزاء الإثم الّذي ارتكب ، إذ الأثام بوزن الوبال والنّكال ومعناهما ، وحيث إنّ هذه الكبائر ذاتها متفاوتة ، فإنّا ربّما استطعنا أن نفهم لماذا أظهرت الآية الكريمة العذاب في صورتين ، مضاعفة العذاب والخلود فيه ، إذ يبدو ، واللّه أعلم ، كأنّ الخلود في العذاب من نصيب الّذين يدعون مع اللّه إلٰهاً آخر ، لأنّ هذا الذّنب أكبر الكبائر كما نصّ على ذلك القرآن الكريم والحديث الشّريف أيضاً . أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أيّ الذّنب أعظم ؟ قال : أن تجعل للّه نِدّا وهو خلقك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل اللّه تصديقها : **﴿ والّذين لا يدعون مع اللّه إلهاً آخر ولا يقتلون النّفس التي حرّم اللّه إلاّ بالحق ولا يزنون ﴾**(١) .

وسيلة نجاة مرتكبي الكبائر :

وما هي وسيلة النّجاة لمن تورّط في هذه الكبائر أو بعضها ؟ التّوبة قبل فوات الأوان والإيمان والعمل الصّالح . أخرج الشّيخان عن ابن عبّاس أنّ ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثمّ أتوا محمدّاً صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا : إنّ الّذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفّارة فنزلت : **﴿ والّذين لا يدعون مع اللّه إلٰهاً**

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول .

آخر ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ ولا يزنون * ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسناتٍ وكان اللّه غفوراً رحيماً ﴾ وقوله[1] : ﴿ قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إنّ اللّه يغفر الذّنوب جميعاً * إنّه هو الغفور الرّحيم ﴾[2] .

إنّ التّوبة النّصوح تتمثّل في النّدم والكفّ التّامّ عن مزاولة الإثم وعقد العزم الأكيد على عدم العودة إلى ارتكابه مرّة ثانية . أمّا الإيمان فإنّه الّذي يملأ على النّفس جوانبها حُبّاً للّه تعالى وامتثالاً لأوامره بعد أن تخلّصت هذه النّفس من أوهامها وآثامها . وكي تعطي النّفس الدّليل الأكيد على توبتها النّصوح ، وامتلاء جوانحها بالإيمان ، فإنها تترجم كلَّ ذلك عملاً صالحاً يرضي اللّه تعالى عنه ويرضى عنه رسوله . وحيث إنّ التّوبة النّصوح تطهّر النّفس من ذنوبها فتعود كالثّوب الأبيض الخالي من الدّنس ، فإنّ الأعمال الصّالحة الّتي حلّت مَحَلّ الأعمال السّيّئة السّابقة ، والّتي تفضّل اللّه تعالى بقبولها ، تستوجب يوم القيامة الحسنات في مقابلها . وهكذا تسع رحمة اللّه تعالى الّذي يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ، ذلك العبد التّائب المؤمن الّذي عمل صالحاً . وإذا بسيّئاته السّابقة يبدلها اللّه تعالى الغفور الرّحيم حسنات .

إنّ الطريق الصّحيح للوصول إلى هذه النتيجة الطيّبة ، هو أن يتّجه المذنب إلى باب بارئه المفتوح دائماً ليتوب توبةً نصوحاً ويعمل

---

(١) سورة الزمر ، ٥٣ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول .

صالحاً ، وبذلك يكون قد عاد إلى الصّراط المستقيم ، فتاب متاباً مقبولاً بإذنه تعالى مرضيّاً عنه الى اللّه تعالى الّذي يحبّ التّوّابين ويحب المتطهّرين . « روى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبد الرّحمن بن جبير عن أبي فروة أنّه أتى النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : أرأيت رجلاً عمل الذّنوب كلّها ولم يترك حاجّةً ولا داجّة فهل له من توبة ؟ فقال : أسلمت ؟ فقال : نعم . قال : فافعل الخيرات واترك السّيّئات فيجعلها اللّه لك خيرات كلّها . قال : وغدراتي وفجراتي ؟ قال نعم . فما زال يكبّر حتّى توارى »[1] .

ومن الواضح أنّ عباد الرّحمن ، لم يستحقّوا إضافة التشريف والتّعظيم إلى الرّحمن إلا لاجتنابهم لمم الذّنوب فَضْلاً عن كبيرها . وحينما تُنفى الكبائر عن هؤلاء ويعقّب عليها بالإشارة إلى طريق التّوبة الصّحيح ، فإنّ الهدف من ذلك ـ بالإضافة إلى التّحذير من هذه الكبائر ـ فتح باب الأمل الكبير في اللّه تعالى على مصراعيه كي يُغْري جميع النّاس ، وفيهم المذنبون بالولوج فيه ، وإعلامهم بصورةٍ أكيدةٍ وقاطعة ، أنّ طريق التّوبة المرسوم ، كفيلٌ بأن يوصل من سار فيه إلى أعلى الدّرجات ، فيحقّ له وقتاً من الأوقات ، بسبب عمل الصالحات ، أن ينال شرف الالتحاق بعباد الرّحمن .

عباد الرّحمن لا يشهدون الزّور وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً :

قال تعالى : ﴿ والّذين لا يشهدون الزّور وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً ﴾ فما المراد بشهادة الزّور في الآيةالكريمة ؟ إذا نظرنا الى الكبائر الّتي سبق أن نفتها الآية الكريمة عن عباد الرّحمن فيمكن أن ننتهي الى

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٩/٥٩ .

أنّ شهادة الزّور هنا بالمعنى المشهور ، باعتبار أن هذا النّوع من كبائرالذّنوب ، فقد حذّر من شهادة الزور المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، ونهى عنها «عن أبي بكرة رضي اللّهُ عنه قال : قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ؟ قالوا بلى يا رسول اللّه قال : الإشراك باللّه وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئاً فقال : ألا وقول الزّور . فما زال يكرّرها حتّى قلنا ليته سكت »[1] إنّ في إجهاد المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم نفسه في التنبيه إلى عظم ذنب شاهد الزّور دليلاً على أنّ شهادة الزّور كبيرةٌ من الكبائر ، وذلك لما فيها من إضاعة للحقوق وتثبيتٍ لقواعد الظُّلم الّذي حرّمه اللّه تعالى على نفسه ومن باب أولى على عباده .

ويمكن أن تُفْهَمَ شهادة الزّور هنا بأنّها بمعنى حضور مجالس الباطل بكلّ أنواعها فهؤلاء العباد لأنّهم في شغلٍ بجدّ الحياة وضخامة المسؤولية وعبء الأمانة ، هم أبعد النّاس عن مجالس الباطل واللّهو واللّغو .

وحينما نقارن بين جملة « يشهدون » بهذا المعنى ، وجملة « مرّوا » ، في قوله تعالى : ﴿ **وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً** ﴾ ربما تبيّنّا أن القول « لا يشهدون » يحمل في ثناياه شيئاً من الإيحاء بكون الشّاهدين إنّما يفعلون ذلك مع كونهم قادرين على ألاّ يفعلوا ، وأن جملة «مرّوا » تحمل في ثناياها شيئاً من الإيحاء بكون المارّين مضطرّين للمرور العابر فقط ، لأنّهم فوجئوا بأنفسهم في ذلك الممرّ الضيّق ، فعليهم إذن أن يُحْسنوا الخروج ما داموا قد دخلوا غافلين أو مضطرّين . وواضح أنّ المراد باللّغو هنا ، لغو القول . ومعنى هذا : أنّ ثمّة وجهاً

---

(١) التجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصّحيح ، ٢/٢ .

من علاقةٍ بين هذه الآية الكريمة وبين أولى آيات عباد الرّحمن في قوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ . إنّ الامتيازات الّتي يتمتّع بها عباد الرّحمن والّتي جعلتهم يسلمون من الجاهلين الّذين جعلوهم غرضاً ، هي ذاتها الامتيازات والخصائص الّتي تجعلهم يمرّون مرّ الكرام باللّغو الّذي اضطرّوا أن يمرّوا به . وإنّ الّذي يوصلهم إلى هذه النّتيجة الحميدة رجحان عقولهم وصفاء نفوسهم ونقاء ضمائرهم . يضنّون ـ ابتغاء وجه ربّهم الأعلى ـ بكلّ ذرة من الوقت والجهد والعرق ، فلا ينفقون شيئاً ممّا هم له مالكون إلاّ فيما يعتقدون أنّه موصلٌ لأهدافهم النبيلة وغاياتهم السّامية . ما أجمل المثل الذي يضربه عباد الرحمن الّذين يتأسّون في ذلك بالأسوة الحسنة ، المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، رحمة اللّه تعالى المهداة الّذي قال عنه عزّ وجلّ في محكم كتابه[1] : ﴿ **فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكّل على اللّه * إنّ اللّه يحبّ المتوكّلين** ﴾ وقال عزّ من قائل[2] : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم** ﴾ .

عباد الرّحمن يخرّون على آيات اللّه تعالى سامعين مبصرين :

قال تعالى : ﴿ **والذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً** ﴾ على الرّغم من اطمئنان عباد الرّحمن ، إلى أنّهم ـ بعونٍ من اللّه تعالى وتوفيق ـ سائرون في الطّريق المستقيم ، فإنّهم ، امتداداً لحذرهم وإشفافهم ألاّ يتقبّل اللّه تعالى منهم ، كلّهم يقظةٌ

---

(١) سورة آل عمران ، ١٥٩ .

(٢) سورة التّوبة ، ١٢٨ .

وحرصٌ على أن يضيفوا إلى حصيلتهم كلَّ خير يرشدون إليه ويدلّون عليه ، وأن يستمرّوا في تحاشي كلّ ما يحذّرهم ، أهل الصّلاح والرّأي ، من الاقتراب منه ، خوف أن يواقعوا حمى اللّه تعالى الممثّل في محارمه المنهيّ عنها . وهذا الموقف الحسن لعباد الرّحمن ، يقذف إلى أذهاننا توّاً بالفئة المقابلة الّتي إذا قيل لأحد أفرادها اتّق اللّه أخذته العزّة بالإثم[1] ومن الطّبيعيّ أن يكون عباد الرّحمن متعاطفين مع الّذين يذكّرونهم بآيات اللّه تعالى ، إذ لا يملك هؤلاء العباد إلاّ أن يعضّوا على آيات الذّكر الحكيم بالنّواجذ ، ويخرّواعليها بآذانٍ واعيةٍ وعيون راعية . والآية الكريمة في تصوير موقف هؤلاء المؤمنين الهيّنين اللّيّنين ، الأعزّة على الكافرين الأذلّة على المؤمنين ، تنفي عنهم الصّفة الّتي تتمثّل في سواهم من المنافقين والكافرين الّذين يتظاهرون بالإقبال على النّاصح الأمين بآذانٍ يظنّ أنّها واعية ، وأعين يظنّ أنّها راعية ، بينما هم في الحقيقة بمثابة الخشب الّتي كانت مسنّدة فخرّت يخالِفُ خُبْرُها خَبَرَها وباطنها ظاهرها ، فلا خير في القوم . إنّ هؤلاء هم الّذين ينطبق عليهم قوله تعالى[2] : ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك * أفأنت تُسْمِعُ الصّمّ ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك * أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْي ولو كانوا لا يبصرون** ﴾ وقال تعالى في وصف عباد الرّحمن : ﴿ **والّذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً** ﴾ .

عباد الرّحمن يدعون اللّه أن يهبهم قرة أعين من جهة الأزواج والذّرّية والأتباع :

قال تعالى : ﴿ **والّذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا**

---

(١) أشارت الى هؤلاء الآية ٢٠٦ من سورة البقرة .

(٢) سورة يونس ، ٤٢ ، ٤٣ .

قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً ﴾ . إن عبّاد الرّحمن ، حريصون كلّ الحرص على أن يكثر عدد المؤمنين المتّقين ، ومن الطّبيعيّ أن يكونوا حرصين على أن يكون أقرب النّاس إليهم بعض هؤلاء ، فبهذا تقرّ أعينهم وتطمئنّ نفوسهم وترتاح أفئدتهم . وهم يبدأون بالزّوجات اللّاتي يتزوّجون لدينهنّ قبل أي سببٍ آخر ، ويثنّون بالذريّة ثمرة الزّواج . إنّ هؤلاء العباد يدعون اللّه تعالى بقلوب خاشعة وعيونٍ دامعةٍ أن يهب لهم من جهة هؤلاء الأزواج والذّرّية قرّة أعين وراحة بال وطمأنينة نفس . ويتمّ كلّ ذلك حينما يكونون جميعاً خاشعين للّه. ولعلّنا تبيّنّا أنّ الآية الكريمة في استعمالها القول « قُرّة أعين » قد راعت طريقة العرب في التّعبير ، بقصد تقريب المرامي البعيدة ، للعرب أوّلاً ، الّذي نزل القرآن الكريم بلسانهم ، والّذين اعتادوا حينما يتمنّون قرب الشّيء مصدر السعادة والطمأنينة لهم ، وهم سكان البيئة الحارة ، أن يربطوا به الدّعاء بأن يكون قرّة للعين أي برداً لها وسلاماً ، لأنّ أعينهم تتأذّى في العادة بفعل حرارة البيئة ، فما أشدّ حاجتهم لقرّة العين الّتي يعنون بها برد الفؤاد وثلج الطمأنينة والسّعادة واليقين .

ونستطيع أن نفهم أنّ هؤلاء الآباء أسوةٌ حسنةٌ لكلّ من الأبناء والأزواج . ولكنّ هؤلاء العباد يكنّون للجميع كلّ خير ، ومن ثمَّ هم يدعون اللّه تعالى أن يوفّقهم مع الآخرين ، كما وفّقهم مع أقرب النّاس إليهم ، بأن يجعلهم للمتّقين إماماً ، يقودونهم في طريق الخير الواحد الّذي رسمه القرآن الكريم وسنّة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وحثّ على المضيّ فيه وحده وحذّر من سواه .

ونودّ في هذا الجوّ العاطر أن نشير إلى دور لفظة الرّبّ في إشاعتها الرّضا والاطمئنان في هذه المجموعة من الآيات ، بما في ذلك هذه الآية

الكريمة الأخيرة في صفات هؤلاء العباد .

وواضحٌ أنّ كلّ اهتمام هؤلاء العباد متعلّقٌ بالدّين ، لأنّه إذا صلح صلحت الأولى والآخرة . وما أشدّ حرص هؤلاء العباد على أن يعمل صالحاً كلٌّ من اتّصل بهم بنسب ، وعرفهم بسبب ، كي ينضووا جميعاً تحت راية هذه الآية الكريمة من سورة النّحل ، قال تعالى[1] : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ قال تعالى في سورة الطّور[2] : ﴿ **والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كلّ امرىءٍ بما كسب رهين** ﴾ وقال تعالى في سورة الرعد[3] : ﴿ **والّذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سِرّاً وعلانية ويدرءون بالحسنة السّيّئة أولئك لهم عُقْبى الدّار ، جنّات عَدْنٍ يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار** ﴾ .

جزاء عباد الرّحمن :

قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقَّوْن فيها تحيّةً وسلاماً * خالدين فيها حسنت مستقرّاً ومقاماً** ﴾ .

أمّا الغرفة فإنّها علالي الجنّة ، وهي بمعنى الغرفات ، على نحو ما جاء في سورة سبأ[4] قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالّتي

---

(١) آية ، ٩٧ .
(٢) آية ، ٢١ .
(٣) آيات ، ٢٢ ـ ٢٤ .
(٤) آية ، ٣٧ .

تقرّبكم عندنا زُلْفي إلاّ من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضّعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ وجاء في سورة الزّمر[1] لفظة الغرف ، قال تعالى : ﴿ **لكن الّذين اتّقوا ربّهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرَفٌ مبنيّةٌ تجري من تحتها الأنهار وعد اللّه لا يخلف اللّه الميعاد** ﴾ . وإنّما استحقّ هؤلاء العباد هذا الجزاء الحسن بسبب صبرهم في السّرّاء والضّرّء ، عن المعاصي وعلى الأوامر . وفي هذه العلالي من الجنّة يحيّيهم الملائكةأو يحيّي بعضهم بعضاً ، داعين بالتّعمير والبقاء ، ويدخل عليهم الملائكة من كلّ باب ، داعين لهم بالسّلامة والطّمأنينة .

وهؤلاء العباد لا يذوقون في الجنّة الموت ، فهم خالدون . جاء في سورة الدّخان[2] : قوله تعالى : ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فَضْلاً من ربّك * ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ . ومن الطّبيعيّ أن تحسن الجنّة مستقرّاً ومقاماً . قال تعالى : ﴿ **خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً** ﴾ **وذلك في مقابل ما جاء عن النّار على لسان عباد الرّحمن** : ﴿ **إنّها ساءت مستقرّاً ومقاما** ﴾ .

جزاء المكذّبين :

وإذا كان ذلك جزاء عباد الرّحمن ، فما جزاء المكذّبين الّذين يرفضون أن يسجدوا للرّحمن وقد أمرهم الرّسول الكريم بالسّجود له عزّ وجلّ ؟ هذا هو الجواب ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ ما يعبؤ بكم ربّما لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً** ﴾ .

وهذا الكلام يجريه ربّ العزّة على لسان حبيبه الكريم الّذي كذّبه

---

(١) آية ، ٢٠ .

(٢) آية ، ٥٦ ، ٥٧ .

الكافـرون ورفضوا الإصغـاء إليه وقـد طلب منهم أن يسجـدوا للرّحمن ويعبـدوه وحده لا شـريك لـه . وفي هذا الكلام يطلب منـه عليه الصّـلاة والسّلام أن يقول لكفّار مكّة ـ ويمكن أن يقال لكلّ المشركين أمثالهم ـ إنّه لا اكتراث لهم ولا قيمة إلاّ بعبادته عزّ وجلّ وحده لا شريك له . فالدّعاء هنا بمعنى العبادة . وحيث إنّهم كذّبوا فالعذاب سيكون ملازمـاً لهم في الآخرة ، بعد ما يحل بهم في الدّنيا « والأكثرون على أنّ اللّزام هنا هو يوم بدر ، وهو قول ابن مسعود وأبيّ »[1] حيث قد قتل منهم سبعـون رجلاً ، والأسرى كذلك[2] وجاء في البحر المحيط[3] بشأن « ما » في قوله : « قل مـا يعبأ بكم » : « والـظّاهـر أنّ مـا نفي ، أي ليس يعبـأ بكم ربّي لـولا دعاؤكم . ويجوز أن تكـون استفهاميّـة فيها معنى النّفي ، أي أيُّ عبء يعبأبكم » وإلى كونها استفهامية فيها معنى النّفي نحن أميل .

ونستطيع أن نقول عن هذه الآية الكريمة الأخيرة إنّها امتدادٌ لتسلية المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم والتّسرية عنه .

(١) البحر المحيط ، ٥١٨/٦ .
(٢) السّيرة ، ٧١٤/١ .
(٣) ٥١٧/٦ .

الخاتمة

أمكن تقسيم سورة الفرقان الكريمة، بحسب الموضوعات المتجانسة الّتي تعالجها خمسة أقسام . وفيما يتّصل بالقسم الأوّل فإنّه يتكوّن من ستّ آيات . وقد درسنا الآية الكريمة الأولى : ﴿ **تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ تحت عنوان : محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم عبد اللّه ورسوله للعالمين ، فحاولنا تبيين معنى الآية ووقفنا مليّاً عند لفظة العالمين الّتي تنصّ على كون الإسلام رسالةً عالميّةً لا ترتبط بحدود المكان والزّمان . وهذه الحقيقة اقتضت منّا أن نبيّن مجموعةً من الحقائق الّتي ارتبطت بها . وكان ذلك على النّحو التّالي .

(١) النّصّ على كون البشريّة قد وصلت في مدارج الرّقيّ إلى مرحلة الرّشد الّتي تناسبها الرّسالة الشّاملة الخاتمة والكتاب السّماويّ الأخير .

(٢) كون رسول هذه الرّسالة الشّاملة خاتماً للأنبياء والمرسلين ، وقد نصّ على ذلك القرآن الكريم .

(٣) حفظ اللّه تعالى لكتابه العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، مع تيسيره للذّكر ، وكونه قادراً على مَلْء كلِّ نفسٍ بمعانيه العذبة وعواطفه المتدفّقة ، وكلّ عقلٍ بأفكاره الصّائبة وحكمه السّديدة وقد شملت بركة هذا الكتاب العزيز اللّغة العربيّة مكتوبة ، ويتمثّل ذلك في الكتابة العربيّة الإسلاميّة ، ومنطوقة ، ويتمثّل ذلك في حفظ اللّغة الفصْحى بحيث إنّ أدب هذه اللّغة الآن يُعْتَبَرُ بحقٍّ أقدم الآداب الإنسانية الحيّة . كما شملت بركة القرآن الكريم الأمّة الإسلاميّة ، إذ إنّها على حدّ تعبير المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائره بالسَّهر والحمّى . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ صوت الأذان للصّلاة يملأ آذان الآفاق خمس مرّاتٍ كلّ يوْمٍ وليلة .

(٤) لقد شملت العناية الإلٰهية السّنّة النبويّة أيضاً ، فجمع من أقواله صلّى اللّه عليه وسلّم وأفعاله وأحواله ما لا يقلّ عن مائة ألف حديث . وقد ميّز العلماء منها الصّحيح من غيره ، القويّ من سواه . وكانت النتيجة أن أصبح بين يدي الإنسانيّة وأمام عينيها أصدق الوثائق وأكملها عن حياة هذا الرّسول الكريم . لقد انفردت سيرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم باشتمالها على أهمّ الصّفات الّتي تجعل منها سيرةً خليقةً بأن تعتبر المثال الأعلى الّذي يُحْتَذى من قبل كلّ عباد اللّه تعالى ، إذ إنّها سيرةٌ تاريخيّةٌ وجامعةٌ وكاملةٌ وعمليّة . وهذه الحقائق تنطق بأنّ إرادة اللّه تعالى إنّما هيّأت لهذه السّيرة العطرة كلَّ هذه الصّفاتَ كي تكون التّرجمة العمليّة لما جاء في القرآن الكريم عن النّبيّ الأسوة : ﴿ **لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة** ﴾ وكي يتاح لهذه الرّسالة الخاتمة ما يجعلها تقوم بدورها على خير وجه ، إذ صحّ لها دون سواها ـ بالإضافة إلى حفظ اللّه تعالى لكتابه العزيز ـ وحدة الشخصيّة الّتي تعتبر المثل الأعلى الّذي يحتذى ، كي يحاول كلّ فرد ،

القيام بمحاولة محاكاة هذه الشخصيّة في حدود الطّاقة البشريّة .

(٥) تنفيذاً لأمره تعالى وأمر رسوله الكريم ، كان كلُّ فردٍ مُسْلم قادرٍ على القيام بمهمّة الدّعوة إلى دين اللّه تعالى ، يعتبر نفسه عضواً في الأمّة الّتي تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنشر دين اللّه تعالى . ولهذا انتشر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يبلّغون رسالة ربّهم ، مضحّين في سبيل ذلك بالأموال والأرواح . وقد أذن اللّه تعالى لهؤلاء العباد ، حينما يحال بينهم وبين أن يدعوا إلى دين اللّه تعالى أن يقاتلوا . ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله تعالى وإعداد العدّة لذلك ، من صميم تعاليم الإسلام . ليس لإكراه النّاس على قبول دين اللّه تعالى الّذي ارتضى لعباده ، فاللّه تعالى يقول : ﴿ لا إكراه في الدّين ﴾ ولكن لكي يتيحوا للنّاس حرّيّة اختيار الدّين الّذي يرتضون ، دون تدخّل أيّة قوّةٍ مضلّلة . وحيث إنّ هؤلاء العباد قد صدقوا اللّه تعالى ما وعدوه فقد صدقهم عزّ وجلّ وعده بأن استخلفهم في الأرض ، ومكّن لهم الدّين الّذي ارتضى لهم ، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً . ولذلك لم يكد يمضي على وفاة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم مائة عام ، حتّى كانت الدّولة الإسلاميّة ممتدّةً من حدود الصّين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً . وليس لمثل هذه السّرعة في الامتداد مع عمق التأثير نظير ، في القديم ولا في الحديث .

(٦) كون الإسلام آخر الأديان والقرآن الكريم خاتمة كلام اللّه تعالى للنّاس والرسول الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين ، استتبع كل ذلك تكفّل ربّ العزّة بإظهار هذا الدّين ، ولو كره المشركون ، على الدّين كلّه ، وكفى باللّه شهيداً . ولهذا كان الإسلام هو السّياج الحصين الّذي كفل ويكفل للمسلمين العزّة والسّلامة ، في كافّة

الـظّروف ومختلف الأحوال . ولهـذا كان الإسـلام قوةً إيجـابيّةً دائمـاً . وحتّى في الفتـرات العصيبـة الّتي ينحطّ فيهـا المسلمـون ويتقهقـرون ، يفتح الإسلام ميادين جديدة . وخير دليلٍ على ذلك هـو أنّه في الـوقت الّـذي تقهقر المسلمـون في إسبـانيـا امتـدّ الإسـلام في آسيـا الصّغـرى وجنوب شرقيّ آسيا وفي الوقت الّذي استولى اليهود على فلسطين نشأت دولـة الباكستان ، الفتيّة . هـذا إلى أنّ الأمل كبيـرٌ في اللّه تعـالى ، أن يعـود إلى حظيـرة الإسلام مـا اقتطع منـه ، وفي مقـدمـة ذلـك القـدس وفلسطين .

(٧) بسبب حفظ اللّه تعـالى لكتـابـه العـزيـز ، وسـلامـة السّنّـة المطهّرة ، ومعرفة السّيرة النّبويّة معرفة كاملة ، كان الإسلام دينـاً ودنيا ، عقيدةً وشريعة . ولهذا كـان مفهوم العبـادة في الإسلام واسعـاً إلى أبعد الدّرجات إذ إنّه شاملٌ لميادين العقيـدة والعبادات والمعـاملات والسّلوك أو الأخلاق .

(٨) انفرد الإسلام منذ فجره بالقُدْرة على القضاء قضاءً مُبْرماً على الوثنية .

ومن ثمَّ كانت تعاليمه بيضاء نقيّة لم تشبها شائبة . وهـذه الحكمة اقتضتهـا إرادة العليم الخبير ، كي تكـون هذه العقيـدة صـالحـةً إلى أن يرث اللّه تعالى الأرض ومن عليها . وتبدو قيمة هذه الميـزة حينما نتبيّن الانحراف الّذي أصاب الديانات الأخرى بسبب اختـلاط تعاليمهـا ابتداءً بالتّعاليم الوثنيّة ، كالمسيحيّة مثلاً .

وقد تبيّن أنّ الآية الكـريمة الأولى من سـورة الفرقـان ، تشير إلى العناصر الّتي تتكوّن منها السّورة والقضايـا الّتي تعالجهـا . واللّطيف في الأمر أنّ الموضوعات ذاتها ، مرتّبةٌ في السّورة الكريمة وفق الإشارة إليها

في هذه الآية الكريمة الأولى ، فسبحان القادر على كلّ شيءٍ الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء . أمّا هذه العناصر أو الموضوعات فهي قضيّة التّوحيد ، أهمّ أهداف السّورة الكريمة ، القرآن الكريم ، آخر الكتب السّماوية ، عبد اللّه ورسوله للعالمين ، محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، إنذار الرّسول الكريم للعالمين ، وانقسامهم بعد ذلك قسمين ، مؤمنين وكافرين . وإنّما اكتفت الآية الكريمة بتقرير صفة الإنذار في حقّ الرّسول الكريم ، دون التّبشير الّذي تأخّرت الإشارة إليه في الآية السّادسة والخمسين ، لأنّ الإنذار ذاته يشكّل أكبر أجزاء السّورة الّتي تتعامل بالدّرجة الأولى مع كفّار مكّة المشركين مع اللّه تعالى غيره ، المكذّبين للرّسول الكريم ، المنكرين لحقيقة البعث .

وتحت عنوان : للّه تعالى وحده الخَلْق والأمر فهو المستحق للعبادة . نظرنا في الآيتين التّاليتين اللّتين تدوران حول قضيّة توحيد اللّه تعالى ، ومن ثمّ فالارتباط بالآية الأولى من السّورة واضح .

إنّ الآيتين الكريمتين تركّزان على صفتي الخلق والقوامة ، تثبتهما للّه تعالى وتنفي كلّ شيء عن الآلهة المدّعاة . وقد أمكنت الإشارة إلى الحقائق المتساوقة ، وهي صفات الخلق ، وتقدير كلّ شيءٍ تقديراً ، والقوامة ، والرّجوع إليه عزّ وجلّ . وإذا كانت الآية الأولى قد أشارت إلى صفتي الخلق والقوامة ، فإنّها في الحقيقة اهتمّت بالقوامة كثيراً ، بدليل أنّ الآية الكريمة ابتدأت بها ﴿ **الّذي له ملك السّماوات والأرض** ﴾ وثنّت بصفة الخلق ومعروف أنّ الخلق يسبق القوامة . ولهذا الاهتمام بصفة القوامة ، دوره في الإيحاء بالزّاوية الّتي سَتُعْنَى بها السّورة بصفة أكثر ، وقد تحقّق

ذلك بوضوح في القسم الرابع من السّورة ، الّذي يلفت الانتباه إلى عددٍ من آيات اللّه تعالى الدّالّة على قدرته ، إذ كانت النّظرة مركّزةً على تقدير اللّه تعالى لهذه الآيات تقديراً ، وتسخيرها للإنسان ، وذلك من مقوّمات القوامة . وقد لفت هذا انتباهنا في المستقبل إلى جنوح ذلك القسم لاستخدام جملة « جعل » بأكثر من جملة « خلق» .

وإنما ركّزت الآية الكريمة الثانية على صفة الخلق لأنّها تتحدّث عن الآلهة المزعومة العاجزة المخلوقة هي ذاتها . وكان ترتيب الآيتين الكريمتين للقضايا ترتيباً منطقياً لطيفاً ، فالإشارة إلى الولد تتقدّم الإشارة إلى الشّريك ، بقصد تقريب المعاني لنا نحن البشر في اللّغة الّتي نفهم والطّريقة المعتادين عليها الآلفين لها . فالحاجة من قِبَلنا للولد تسبق الحاجة للشّريك أو المعين . ونفي القدرة على الخلق عن الآلهة المزعومة سابق للإشارة إلى كونها هي ذاتها مخلوقة من قبل اللّه تعالى ، وأحياناً ـ كالحجر والخشب والعجوة ـ من قبل الإنسان ، معمّقٌ للشّعور بعجز هذه الآلهة وضلال القوم . وتقديم الضّرّ على النّفع معمّقٌ للإحساس بعجز الآلهة العاجزة عن دفع الضّرّ الموجود أو جلب الضّرّ غير الموجود ، لأنّ كليهما أسهل من جلب النّفع لها أو لسواها . وترتيب الموت والحياة والنّشور طبيعيّ أيضاً ، لأنّ البعث بعد الموت يليهما النّشور فالحساب .

وتحت عنوان : ما قال الكافرون عن الفرقان والرّدّ عليهم ، درسنا الآيات الثّلاث التّالية ، وقد سجّل صدر الآية الكريمة الأُولى أوّل اتّهام وسجّل عجزها الرّدّ السّريع الفوريّ . كما سجلت الآية الثّانية الاتّهام الثّاني ، وسجلت الآية الثّالثة الرّدّ عليه . الاتّهام الأول والرّدّ عليه يُمثّل في قوله تعالى : ﴿ **وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفكٌ افتراه وأعانه**

عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظُلْماً وزوراً ﴾ لقد وصف الكافرون المتّهمون بأنّهم ظالمون لأنفسهم وللآخرين ، وبمنزلة الّذين يدلون بشهادة الزّور العالم أصحابها قبل الإدلاء بها أنّهم كاذبون . ويلاحظ أنّ القسم الخامس من السّورة الخاصّ بعباد الرّحمن نفى عن هؤلاء العباد الإدلاء بشهادة الزّور .

وقد لفت انتباهنا أنّ هذا الاتّهام الّذي وجّهه كفّار مكّة ، والّذي فنّده القرآن الكريم ، يردّده دائماً خصوم هذا الدّين ، ولا عجب فقد تشابهت قلوب القوم فتشابهت أقوالهم وأفعالهم .

والاتّهام الثّاني يتمثّل في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً** ﴾ . ويتمثّل الرّدّ عليه في قوله تعالى : ﴿ **قل أنزله الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ لقد أراد كفّار مكّة أن يهيّئوا للاتّهام الثّاني كلّ الوسائل المسعفة على استساغته ومن ذلك زعمهم أنّ المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم قد أعانه على تأليف هذه الأساطير أفرادٌ يجيدون القراءة والكتابة ، وقد دوّن له الأخيرون ما طلب منهم في كلّ مناسبة ، وبخاصّةٍ في الوقتين اللّذين يغلب فيهما العمل الّذي يحتاج أن يسبقه تهيئة وإعداد . وهذان الوقتان هما الصّباح الباكر ووقت الأصيل ، وهما من أنسب الأوقات في مكّة المكرّمة للتّصدّي لعمليّة التّأليف . فنحن إذن بصدد اتّهام أريد له بكلّ الوسائل أن يجوز ، بما في ذلك الاستفادة من الظُّروف الطبيعيّة للبيئة .

وقد لفت انتباهنا بشأن هذا الرّدّ الثّاني أن الآية الكريمة تذكر القرآن الكريم مع أكبر الكائنات وأقوى الأدلّة على قدرته عزّ وجلّ ، أعني السّماوات والأرض . وهذا دليلٌ على مكانة هذا الكتاب العزيز

الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد . وكيف لا يذكر القرآن الكريم مع اكبر الآيات وهو أقرب آيات اللّه تعالى للعقول الصّحيحة فهماً وأقدرها على الوصول إلى أجلّ المقاصد وأنبل الغايات من أقصر طريق ، هذا إلى أنّ القرآن ذاته يلفت الانتباه إلى جليل آيات اللّه تعالى وخفيّها ، إلى السّماوات والأرض ، النّفس الإنسانيّة ووساوسها . وما أكثر الآيات الدّالّة على قدرة اللّه تعالى ووحدانيّته الّتي نبّه إليها القرآن الكريم . وبهذا يكون القرآن الكريم شهادةً أزليّةً على قيمة الكلمة الصّحيحة الصّادقة بين مختلف الوسائل في القدرة على الوصول إلى أسمى الغايات من أحسن السُّبل وأقصرها . وإنّ في إشارة الآية الكريمة إليه عزّ وجلّ بأنّه الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض حثّاً لأصحاب العقول أن ينتفعوا من عقولهم في محاولة الكشف عن أسرار الكتاب العزيز كي ينتهوا إلى أنّه كلام ربّ العالمين . ولكنّ كفّار مكّة هم الحاسدون دائماً ، الّذين لا يطمع منهم في شيءٍ من عَدْلٍ ولا إنصافٍ .

والّذي يلاحظ على الرّدّ على كلا الاتّهامين أنّه سريعٌ وفوريّ . ولهذه الطّريقة فضلها في التهيئة لتبيّن الرّدّ الذي تلك صفته في القسم الثّاني من السّورة ، المتضمّن لاعتراضات الكاذبين والرّدّ عليها . وهكذا يتبّين أنّ القسم الأوّل يتكوّن من شقّين ، كلّ شق يتكوّن من ثلاث آيات تملأ كلّ نفسٍ بهجة وكلّ إذنٍ حكمة .

ثمّ تحوّلنا إلى القسم الثاني الّذي يتناول أوّل الأمر الاعتراضات الأربعة للكافرين ويدحضها الواحد تلو الآخر . وقد سجّلت الآيتان الأوليان ، في طريقةَ القرآن العجيبة في السّرد ، اعتراضات الكافرين على الرّسول الكريم ، وذلك إثر الحديث في القسم الأوّل عن الذّات

العليّة وقضيّة التّوحيد فالقرآن الكريم . وكأنّ الموضوعات في هذا القسم مع سابقه تسير وفق الإشارة إليها في الآية الكريمة الأولى من السّورة . على أنّ ما نظمته الآيتان من اعتراضاتٍ كان أساساً مفرّقاً على ألسنة مجموعاتهم ، ولا يمنع ذلك من أن تشترك المجموعة الواحدة في أكثر من اعتراض . وقد تبيّن أنّ الاعتراضات سارت وفق هذا النّسق .

أ . أكل الطّعام والمشي في الأسواق .

ب ـ طلب نزول الملك شريكاً أو شاهداً .

جـ ـ طلب إلقاء الكنز على الرّسول أو أن تكون له جنّة يأكل منها .

د ـ اتهامه صلّى اللّه عليه وسلّم بالسّحر . وما إلى ذلك في غير هذه المناسبة .

والّذي لفت انتباهنا هو أنّ دحض الاعتراضات لم يسر وفق ترتيبها في العرض ، وقد حاولنا أن نتبين الحكمة وراء ذلك وأمكن أن تتلخّص في كون الآيات قد راعت في التّرتيب التّحوّل المطّرد من السّهل إلى الصّعب ، من البسيط إلى ما يحتاج إلى كبير فطنة وشديد حذق . ولذا كان ترتيب الرّدود في هذا النّسق ، الاتّهام بالسّحر ، ويشكّل الاعتراض الرّابع . الحضّ على كون الرّسول له كنزٌ أو جنّةٌ ، ويشكّل الاعتراض الثّالث ، الإنكار على الرّسول أن يأكل الطّعام أو يمشي في الأسواق ، ويشكّل الاعتراض الأوّل . الحضّ على أن ينزل إلى الرّسول ملكٌ يكون معه نذيراً ، ويشكّل الاعتراض الثّاني .

أمّا الدّليل على أنّ اتّهام القوم للرّسول الكريم بأنّه مسحورٌ مغلوبٌ على أمره يمثّل أبسط ما جرى على ألسنة هؤلاء الكافرين بين

هـذه الاعتراضـات الأربعة ، وبـالتالي مـا أبسط الرّدّ عليـه ، فقد أمكن استقاؤه من السّيرة النّبويّة حيث قد ثبت أنّ الاتّهام بـالسّحر عمـوماً ليس سـوى أكذوبـة اتّفق عليها كفّـار مكّة بقصـد صرف النّـاس عن الإصغاء للرّسول الكريم وهو يدعو لدين اللّه تعالى ويرتّل القرآن الكريم ترتيلاً ، لأنّ القوم كانوا حريصين على أن تطابق الأكذوبة الّتي يخترعون لطبيعـة الأثر الّذي يحدثه الرّسول الكـريم في نفوس السّـامعين . وكان الاتّهام بالسّحر ، في اعتقادهم ، أكثر التّهم ملاءمة لذلك الأثـر . مع مـلاحظة أنّهم في ذات المجلس الّـذي قالـوا عن الرّسـول الكريم إنّ مثله مثـل السّاحر قد قالوا : إنّ مثله مثل الكاهن والمجنون والشّـاعر . قـال تعالى ردّاً عليهم : ﴿ **انـظر كيف ضربـوا لك الأمثـال فضلّوا فلا يستـطيعـون سبيلاً** ﴾ .

وحينما تحوّلنا إلى الرّدّ الثّاني الّذي يتعلّق باقتراحهم أن يُلْقى إليه صلّى اللّه عليه وسلّم كنزٌ ينفق منـه أو تكون لـه جنّةٌ يـأكل منهـا ، تبيّن بمقارنة هذا الاعتراض بسابقه أنّه رغم تفاهتـه له من زاويـة القوم نصيبٌ ضئيـلٌ من الجدّ ، بسبب سيـطرة المادّة العنيفـة على القوم ، وفي ذات الــوقت نحن نلومهم أشـدّ اللوم ، لأنّهم لم يحــاولـوا أن ينــظروا الى المسألة من غير زاويتهم المادّيّة .

وحينما تحوّلنا إلى الرّدّ الثّالث المتعلّق بإنكار القوم على الـرّسول الكريم أن يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ، طالباً فضـل اللّه تعالى ، تبيَّنَ أنّ لهذا الاعتراض نصيبه من جدّ القوم ، ومن هزلهم على السّواء. أمّـا نصيبه من الجِـدّ فيأتي من كـون اهتمام القـوم بالجـانب المادّيّ من الحياة يجعلهم بحاجـة إلى العون الخـارجيّ ، كي يقفوا على الحكمـة من إرسال اللّه تعالى الرّسول واحـداً من البشر . وأمّـا نصيبه من الهـزل

فيأتيه من كونهم ، بعد أن أوقفوا على الحكمة من هذا الإرسال لم يزدادوا إلاّ نفوراً ، استكباراً في الأرض . وأصرّوا على استفهامهم الإنكاري : « ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق » .

وحينما تحوّلنا إلى الرّدّ الرّابع تبيّن أنّ ثمّة نوعاً من ترابط بينه وبين الاعتراض السّابق . لأن اعّتراضهم على الرّسول أن يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق معناه أنّه ملكٌ من الملائكة . وهم هنا يقترحون أن ينزل إلى الرّسول ملك يشهد بأنّه رسولٌ ، وفي موضع آخر أن يكون الرّسول نفسه واحداً من الملائكة . ولمّا كان حديث القوم المتنوّع عن الملائكة وسيلة لطلب أشدّ خطورة وأكثر دلالة على الخرق والحمق ، أن يروا اللّه تعالى جهرة ، فقد اقتضى ذلك أن يكون الرّدّ ذا جوانب متعددة ومتشعّبة ، ومتضمّناً لما له علاقة باقتراحهم أن ينزل إلى الرّسول ملكٌ . وقد ابتدأ الرّدّ على النّحو التّالي . قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا** ﴾ .

ولمّا كانت الاعتراضات الأربعة موجّهة الى شخص الرّسول الكريم ، فقد ابتدأ أوّل الرّدود بمخاطبة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم قائلاً : « انظر » تسليةً له عليه الصّلاة والسّلام وتثبيتاً ، وذلك مهيّىءٌ للتّسلية الواضحة والتثبيت الصّريح ، كلّما أخذنا نقترب من الآيات الأخيرة في القسم .

وقد لفت انتباهنا بشأن أوّل الرّدود أنّه سريعٌ وفوريّ ، وذلك على غرار الرّدّ في القسم الأوّل من السّورة على اتّهام الكافرين للقرآن الحكيم بأنه إفكٌ افتراه الرّسول الكريم وأعانه عليه قومٌ آخرون ، وبأنّه أساطير الأوّلين اكتتبها . إنّ للرّدّ الفوريّ في القسم الأوّل من السّورة فضله في معرفة الاعتراض الّذي تدحضه أولى آيات الرّد على الاعتراضات .

وكان الرّدّ على الحضّ بأن يُلْقى إلى الرّسول كنزٌ أو تكون له جنّةٌ يأكل منها ، متمثّلاً في آيةٍ واحدة ، بينما بيّنت الآية التّالية العلّة الحقيقية وراء الاعتراض ، وهي أنّ القوم قد كذّبوا بالسّاعة . ومن ثمّ بيّنت الآيات التّالية العذاب الأليم الذي ينتظر القوم ، وقارنت ذلك بالنعيم المقيم الذي ينتظر أصحاب الجنة ، كما بيّنت نوع الحساب الّذي ينتظرهم وهم المشركون به عزّ وجلّ سواه والسّبب في ذلك الإشراك ، ووضّحت الخزي الّذي ينتظرهم يوم القيامة والهوان .

وكان الرّدّ على الاعتراض بكون الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق مصحّحاً لوهم كفّار مكّة أنّ رسول اللّه تعالى إليهم ينبغي أن يكون من جنس الملائكة ، ظنّاً منهم أنّ مستوى البشر أقلّ رتبةً من الرّسالة ، فبيّن الرّدّ أنّ هذه هي سنّة الله تعالى ، لأن طبيعة البشر لا تطيق كون الرّسول إليهم واحداً من الملائكة ، فاقتضت المصلحة أن يكون الرّسول من جنس البشر ، لأنّهم حينئذ أقدر على الأنس به والاستفادة منه . وقد جنح عَجُزُ آية الرّدّ الى تسلية المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، إذ بيّن أنّ ما لاقاه عليه الصّلاة والسّلام من قومه شيءٌ طبيعيّ ، سبق أن لاقاه الأنبياء والمرسلون ، وسيلاقيه المصلحون ، فالمطلوب منه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وإنّه عليه الصّلاة والسّلام ، للأسوة الحسنة لكلّ حامل رسالةٍ من أمّة الاسلام في الصّبر الجميل .

وإذا كنّا لاحظنا بشأن الرّدود الثّلاثة السّابقة أنّ كلًّا منها لم يقف عند الرّدّ على الاعتراض ، إنّما تجاوز ذلك إلى وصم الكافرين بما هُمْ أهلٌ له من ظُلْمٍ وضلالٍ وتكذيبٍ للسّاعة فسوف يلقون سعيراً وبكونهم فتنة ، فإن الرّدّ على الحضّ بأن ينزل إلى الرسول ملك يكون معه نذيراً

قد وصف الكافرين بالاستكبار والعتوّ الكبير . كما أنّه ضمّ اقتراحين قريبين من الاقتراح ذاته. وكان الرّدّ بعد ذلك على أكثر الاقتراحين المضمومين قُرْباً ، أعنى طلب الكافرين أن ينزل عليهم الملائكة ، وبذلك كان الرّدّ شاملاً كذلك للاقتراح الأساسيّ أن ينزل إلى الرسول ملك يكون معه نذيراً ، لأنّ الجامع بين الاقتراحين ، واحد ، هو الاستهانة بالملائكة . وإذا كان الرّدّ قد ركّز على الملائكة ، محور اقتراح الكافرين فإنّه اتّكأ على الزّاوية الّتي يكذّب بها القوم ، أعني يوم القيامة ، إذ أفاضت الآيات في وصف عاقبة الاستهانة والإنكار ، وفي وصف النّدم الّذي سيتمكّن من المجرمين ولات ساعة مندم . وإذا كان الرّدّ قد سكت تماماً عن طلب رؤية اللّه عزّ وجلّ ، لأنّ القوم لاهون ، ولأنّهم سبق أن وصفوا بالعتوّ الكبير من أجل ذلك ، فإنّ الرّدّ شمل الحديث عن الحقّ جلّ وعلا الّذي له الملك الحقّ في ذلك اليوم ، كما شمل شكوى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم لربّه في ذلك اليوم هجر قومه للقرآن الكريم . وختم الرّدّ بتسلية المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، حيث إنّ ما صادفه من أعداء اللّه تعالى المجرمين ، سبق أن صادفه كلّ الأنبياء السّابقين ، وكان النّصر في النّهاية من نصيب جند اللّه تعالى دائماً وأبداً. وإنّ تنويع الكلام في أثناء الرّد وإضافة جديد دائماً ، يجمع بين حسنتين ، بين كون الكلام رداً على رأي سبق أن عُرِف ، وبين كونه جديداً. فهو ليس بالقديم الخالص وليس بالجديد الخالص ، وكون الكلام الجديد القديم المستأنف غير المستأنف يمثّل بوضوح أشدّ ، آخر حلقات الرّدّ على الكافرين ، فإنّه يُعْتَبَرُ من أجل ذلك خير مهيّىء ، للتحوّل إلى موضوعٍ آخر ، قديمٍ جديدٍ في آنٍ واحد . أمّا أنّه قديمٌ فلأنّه ردٌّ من نوعٍ الرّدود السّابقة . وأمّا أنّه جديد ، فلأنّ الاقتراح الّذي يردّ عليه جديد إلى حدٍّ ما . وقد

تمثّل ذلك في آخر الرّدود على اقتراح الكافرين أن ينزل القرآن جملةً واحدةً بدلاً من نزوله مفرّقاً . وبين يدي الاقتراح وصف القوم بالكفر . قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين كفروا** ﴾ وذلك بمثابة التّعليل للضّلال الّذي هم فيه . وقد بيّن الرّدّ الحكمة في إنزال القرآن الكريم منجّماً ، وهي تثبيت فؤاد المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم . وهذه الحكمة ، بمثابة التّطبيق العمليّ لما كان يعانيه المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم آنذاك بمكة . وبهذا جمع الرّدّ في آنٍ واحدٍ بين النّاحيتين النّظريّة والتّطبيقيّة ، لأنّ الرّد ذاته مثبّتٌ لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام في تلك الآونة العصبية . ويضيف الرّدّ الوسيلة الّتي يكون التثبيت أشدّ رسوخاً ، ألا وهو نصاعة الحجّة وجمال العَرْض . فالقرآن الكريم معجزٌ بمعناه ومبناه ، بمضمونه وشكله. وقد آتت هذه الحكمة أُكُلها ، إذ تسنّى للصّحابة رضوان اللّه تعالى عليهم أن يجمعوا في آنٍ واحدٍ بين العلم والعمل . وإذا كان نزول القرآن الكريم منجّماً مثبّتاً لفؤاده صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإنّه في الوقت ذاته يدحض كلَّ اعتراضٍ يخطر ببال القوم الكافرين الّذين اتّبعوا أهواءهم .

وختم هذا القسم بتبيين الكيفيّة الّتي يحشر فيها المجرمون . إنّهم يحشرون على وجوههم إلى جهنّم حيث ينتظرهم الجزاء الوفاق لسوء عملهم في الدّنيا . فعلى كفّار مكّة أن يستفيدوا من هذا الإنذار وأن يعودوا إلى الصّراط المستقيم ، صراط الّذين أنعم اللّه تعالى عليهم .

ثمّ تحوّلنا إلى القسم الثّالث حيث جنحت السّورة الكريمة الى الإنذار ، وقد اتّخذ ذلك أوّل الأمر صورة العَرْض لعددٍ من الجماعات الّتي دمّرها اللّه تعالى تدميراً ، تلا ذلك الحديث عن كفّار مكّة الّذين اتّبعوا أهواءهم، وفي ذلك تثبيت لفؤاده صلى للّه عليه وسلّم . وقد

أشرنا الى العرض المنطقيّ البديع للأقوام الّذين دمرهم اللّه تعالى وإلى الحديث عن الأقوام من الزّاوية الّتي تخدم الهدف الأكبر للسّورة ، وهو إنذار الكافرين ، وذلك في ضوء الإشارة إلى هذا الهدف في الآية الكريمة الأولى من السّورة . وقد كانت الإشارة أوّل الأمر إلى موسى عليه السّلام وقومه لقوّة الشّبه بين الملابسات بشأن الرّسولين الكريم ، هذا الى أنّ كلاًّ منهما قد منّ اللّه تعالى عليه بكتابٍ سماويّ . وكانت الإشارة آخر الأمر إلى قوم لوطٍ عليه السّلام لأنّ آثار القوم الحسّيّة الدّالّة على انتقام اللّه تعالى منهم هي من الآثار القليلة الباقية الّتي يمرّ بها كفّار مكّة ليلاً أو نهاراً في رحلاتهم الى الشّام . ثمّ راعى السّرد بعد ذلك الجانب التّأريخيّ للأقوام . وبسبب الزّمن المتراخي بين الجماعات جاءت الإشارة الّتي تملأ كلّ الأزمنة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وقروناً بين ذلك كثيراً** ﴾ .

إنّ كفّار مكّة يرون هذه الآثار ولكن لا فائدة من ذلك ما داموا لا يعرفون سبب ذلك التّدمير أولا يصدّقون أنّ الانحراف عن جادّة الصّواب هو السّبب في ذلك . ومن الأدلّة الواقعيّة على ضلال سعي القوم وحيرتهم ما يتورّطون فيه بحق الرسول الكريم من تناقضٍ واضطراب . فهم من ناحيةٍ يستهزئون ، ومن ناحيةٍ أخرى يعترفون بأنّه عليه الصّلاة والسّلام كاد يصرفهم عن آلهتهم الّتي يعبدون من دون اللّه تعالى . وقد كفى اللّه تعالى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم أمر المستهزئين وثبته بالقول الثّابت . وإنّ اعتراف القوم بأنّه عليه الصّلاة والسّلام كاد يحملهم على التّخلّي عن عبادة آلهتهم ، شهادةٌ من العليّ الحكيم ، الّذي أنزل القرآن ، بأنّه عليه الصّلاة والسّلام قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة . وقد نُبّه عليه الصّلاة والسّلام إلى أنّ دوره يقف عند ذلك . كما نصّت الآيات على أنّ القوم آتخذوا أهواءهم آلهتهم وأنّهم

لا يسمعـون ولا يعقلون ، وبذلـك هم كالأنعـام بل أضـلّ سبيـلاً ، لأنّ الأنعام تعمل مدفوعةً بغريزتها وفق مصلحتها ، أمّا القـوم فإنّهم يعـطّلون نعمة العقل الّتي امتنّ اللّه تعـالى بها عليهم ويتّبعـون أهواءهم ، فهم يعملون ضدّ مصلحتهم .

ثم تحـوّلنا إلى القسم الـرّابع من السّـورة . وقد تبيّن أنّه إذا كـان القسم الثّـالث يتعامـل بالـدرجة الأولى مـع الكافـرين المنكـرين للبعث والنّشور والحساب ، ومن ثمّ يغلب عليه طابع الإنذار ، فإنّ هذا القسم يتعامل بـدرجة كبيـرة مع الـرّاشدين الّـذين إذا ذُكّروا أفـاقوا من غفلتهم وتـدبّروا آيـات اللّه تعالى وقـاموا بمـا يجب عليهم من شكـرٍ للّه تعـالى المنعم المتفضّل .

وفي هذا القسم إطاران كبيـران تجلّت فيهما نعم اللّه تعـالى على الإنسان ، من الوجهتين المـادّيّة والمعنـويّة ، الإطـار الأوّل ويتكوّن من شقّين ، الأوّل السّمـاوات والأرض ، والثّـاني اللّيـل والنّهـار ، والإطـار الثّاني ويتكوّن من شقين أيضـاً . الأوّل القرآن الكـريم والثّاني الـرّسول العـظيم . ونستـطيـع أن نقـول إنّ الهـدف من سـرد هـذه النّعم حمـل الإنسـان على التّأمّـل والتّدبّـر فالشّكر للّه تعـالى على نعمه وآلائـه وذلك بعبادته وحده لا شريك له . ولهـذا التّعبير العـائد إلى الـذّات العليّة في القسم : « وهو الّذي » والّـذي صدّرت بـه آياتٌ عـدّة ، فضلٌ كبيـرٌ في التّنبيه إلى هذا الهدف السّامي . إنّه يعني أنّ اللّه تعالى وحده لا شريك له هو المتفرّد بالخلق والأمر ، فهو الّذي ينبغي أن يفرد بالعبادة .

وفيمـا يتّصل بـالإطار الأوّل المتعلّق بـالسّماوات والأرض واللّيـل والنّهار، تبيّن أنّ آيات القسم تتحدث عنه من زاوية تسخير اللّه تعالى لهذه النّعم بأكثر من زاوية الإيجاد من العدم والخلق، وذلك مرتبطٌ بالهدف

السّامي ، ألا وهو عبادة اللّه تعالى الّذي نبّهت اليه ما صدّرت به مجموعة من الآيات : « وهو الّذي » وما ختم به القِسْم من إشارةٍ إلى ضرورة التذكّر فالشّكر ، قال تعالى : ﴿ **لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكوراً** ﴾ والّذي نبّهت إليه أيضاً جملة «« جعل » الّتي تدور في هذا القسم بأكثر من جملة « خلق » .

وبدراسة آيات القسم تبين أنّ أولى الآيات الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ ، والّتي لُفِت الانتباه إليها ، هي آية الظّلّ ، الّذي يوجد نهاراً وقبل طلوع الشّمس وبعد الغروب ، وآية اللّيل والنّهار . وذلك يعني أنّ الحديث قد شمل دورةً كاملة للأرض حول نفسها . وقد قدم اللّيل في الذّكر على النّهار ، لأنّ المرحلة الثّالثة من الظّلّ تسلمنا إليه ولأنّ الظّلام هو الأصل . ثمّ كان التحوّل إلى آيةٍ وثيقة الصّلة باللّيل والنّهار وتقلّبات الأجواء فيهما ، وهي آية الماء الطّهور النّازل من المزن ، والّذي تُرْسل الرّياح بُشْراً بين يديه مشعرةً في لطفٍ بأنّ رحمة اللّه تعالى قريبٌ من القوم كي يستعدّوا لنزول المطر والعمل على الانتفاع به وتجنّب ما يمكن أن يحصل بسببه من ضرر . ومن هنا قيل عن الرّياح إنّها مبشّراتٌ بين يدي رحمته عزّ وجلّ ، ومن هنا قيل عن المطر ذاته إنّه رحمةٌ من الله تعالى بعباده . واختيار الآية الكريمة صفة الطّهور للماء ، دليلٌ على أنّ الإنسان هو المقصود أوّلاً بهذا التّكريم . وبما أنّ الماء النازل من المزن هو الّذي يشغل بال القوم ، لقيام مصالحهم المعيشيّة عليه ، لذا تقدّمت الإشارة الى إحياء الماء الطّهور البلدة الميت على غيره من المنافع . ففي إمكان القوم التّوجّه بمواشيهم إلى مظانّ المياه من أجل الشّرب . أمّا طعام الأنعام فيعتمد أساساً على ماء السّماء . وحيما قدّمت الآية الكريمة الإشارة إلى الأرض الميتة نبّهت

الى هـذه الحقيقـة . ويـلاحظ أنّ الإشـارة الى المخلوقـات في الآيـة الكـريمة قـد جاءت وفق هـذا النّسق من التّـرقّي : الجمـاد ، النّبات ، الحيوان ، الإنسان . وذلك دليلٌ على أنّ الإنسـان يمثّل قمّـة مخلوقات اللّه تعالى في الأرض .

ثمّ كـان التّحوّل إلى الإطـار الثّـاني ، القـرآن الكـريم والـرّسـول العظيم . فإذا كان إحياء الأرض الميتة بقصد لفت الانتباه إلى قدرة اللّه تعالى على إعادة الحياة للمخلوقات يـوم القيامـة ، يتمّ عن طريقٍ نعمـةٍ من نعم اللّه تعـالى وآيـة من آيـاتـه ، فينبغي أن يكـون للنّفـوس الميّتـة نصيبها من الإحياء . وكان ذلك من أقصر طريق ، طريق آية اللّه تعـالى الكبرى ومعجزة الإسلام الخالدة ، ألا وهو القرآن الكريم الّذي نزل في أسمى طرق الوحي ، على محمّـد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليـه وسلّم . وقـد حرص هـذا القسم من السّورة على تسليتـه صلّى اللّه عليـه وسلّم والتّسرية عنه ، وقد أمكن عقد رابطة متينة بين الآية الكـريمة الّتي تشيـر إلى الحكمـة في كون حـامل الـرّسالـة الخاتمـة واحداً ، قـال تعـالى : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كلّ قـرية نـذيراً** ﴾ وبين الآيـة الكريمـة الأولى في السّورة ، فكأنّ لفظة العالمين فيها بمثابة السّبب أو الحكمة في كونه عزّ وجلّ قد جعل الرّسالة الخـاتمة واحـدة الرّسـول والكتاب وواحـدة السّنّة أيضـاً . وفي هذا القسم نهِيَ عليـه الصّـلاة والسّـلام عن طـاعـة هؤلاء الكافرين في كلّ الأحوال، وأُمِر بأن يجاهدهم بـالقرآن الكريم جهاداً كبيراً . وهذا درسٌ بليغٌ لكلّ حامل رسالةٍ من أمّة الاسلام . إنّ جيش الدّعاة الى اللّه تعالى ، الأكمل استعداداً ، وسلاحهم الأمضى نفاذاً هو هذا القرآن الكريم الّذي يسّره ربّ العزّة للذّكر . ويفهم بعد ذلك أنّ الدّين الإسلاميّ كلّ لا يقبل التّجزئة ولا يخضع لأنصاف الحلول .

ثمّ تحوّل الحديث إلى مظهر ملموس آخر من مظاهر قدرته عزّ وجلّ ، ذي علاقة بالمظهر السّابق لقدرته عزّ وجلّ الممثّل في الماء الطّهور النّازل من السّماء ، وذي علاقة أيضاً باختلاف آيتي اللّيل والنّهار اللّتين عرضت لهما الآيات الأولى في القسم . وهذا المظهر الجديد هو الماء العذب الفرات والماء المِلح الأجاج . وهل الماء الطّهور النّازل من السّماء إلاّ وليد الأبخرة الّتي تكوّنت بفعل حرارة الشّمس ، والّتي عادت مرّة أخرى إلى الأرض ماءً طهوراً ، ليلاً أو نهاراً ، بفعل اختلاف حرارة الأجواء العليا . وقد قدّم الماء العذب في الذّكر ، وذلك من مظاهر تكريم اللّه تعالى للإنسان الّذي يحسّ بأنّ حاجته للماء العذب تسبق حاجته لسواه . وكانت النّظرة للآية الكريمة مراعية الحركة الّتي تتضمّنها جملة : « مرج » فلا يصحّ للماء العذب إلاّ أن يجري في الأنهار المتّجهة إلى البحار وفق انحدار الأرض المقدّر المضبوط . ولا يصحّ للماء الملح إلاّ أن يتحرّك في مكانه في هيئة المد والجزر ، يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ، دون أن يستطيع وقتاً من الأوقات الاعتماد على إحداهما . وحينما يقدّر للبحرين أن يلتقيا بعد شوق لطول الافتراق بسبب البرزخ والحجر المحجور ، فإنّه الالتقاء الجميل الطّبيعي الّذي يتحقّق به الخير والجمال .

وبما أنّ كلّ ما في السّماوات وما في الأرض إنّما خلقه اللّه تعالى من أجل الإنسان ، فسخّره له ، وبما أنّ القرآن الكريم إنّما أنزله اللّه تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين من أجل هذا الإنسان ويسّره للذّكر ، فقد كان من الطبيعيّ أن يتحوّل الحديث إلى هذا الإنسان ، ومن زاوية الطّابع الغالب على المجموعة من الآيات ، من زاوية كونه ماءً أساساً . وهكذا تجمع الآيات بين أنواع من الماء رئيسيّة ، ماء الحياة وماء الأرواح وماء الأبدان . وتشير الآية الكريمة إلى الزّوجين ،

الـذّكر والأنثى ، ولكنّهـا تنظر إليهمـا من الزّاويـة الّتي تتمشّى مع الجـوّ العامّ للآيات والهدف منها ، وذلك من جهتين ، جهة النسب ، وعصب هذه النظرة الذّكور ومن جهـة وشائـج المصاهـرة ، وعصب هذه النّـظرة الإناث .

وما موقف كفّـار مكّة زمن الـرّسول صلّى اللّه عليـه وسلّم من كلّ آيات اللّه تعالى وآلائه ؟ إنّه الانصراف التّامّ عنه عزّ وجلّ . قال تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون اللّه ما لا ينفعهم ولا يضرّهم وكان الكافر على ربه ظهيراً** ﴾ . وعاد الحديث إلى تسليته صلّى اللّه عليه وسلّم الّذي كـادت تذهب نفسه حسـرات لانصراف قـومه عن الصّـراط المستقيم ، إذ تأبى رحمة اللّه تعالى أن تتركه عليه الصّلاة والسّلام لأحزانه تنهشه . فتحـدّد الآيات وظيفته الّتي لا تتجاوز التّبشير والإنذار ، وتلقّنه ما يقول لكفّـار مكّـة الماديّين . إنّـه عليه الصّـلاة والسّلام لا يـريد من عمله أدنى أجـر مادّي ، سوى أن يتّخذ المنذرون سبيلاً إلى ربّهم ، ويؤمر بالتّوكّـل على اللّه تعالى الحي الذي لا يمـوت ، وأن يسبّح بحمـد خالق السّمـاوات والأرض الّذي لا يخفى عليه شيء من ذنوب عباده ، وفي مقدّمتهم كفّار مكّة ، وأن يدعوه عزّ وجـلّ . وفي هذه الآيـات درسٌ بليغ لكـلّ حامـل رسالة من أمّة الإسلام . فعلى كلّ أن يعلم أنّ الطّريق ليست معبّـدة بل مليئة بالأشواك ، وأن يكون على يقين من أنّه كثيرٌ بالله تعـالى ، يستمدّ منه العون والتّـوفيق ، وأنّ عليه الاجتهـاد في التّبليغ ، أمّـا النّتائـج وأمّا الحساب ، فأمر ذلك كلّه مـوكولٌ إليـه عزّ وجـل . وفي خلق اللّه تعالى السّمـاوات والأرض في ستّـة أيّـام ، ولـو شـاء أن يخلقهمـا في لحـظة لفعل ، درسٌ للبشر في التّريّث والأناة .

ولم يـزدد كفّـار مكّـة إلا نفـوراً ، وبخـاصّـة إذا ذكـر اللّه تعـالى

وحده . ومن مظاهر ذلك أنّهم حينما يقال لهم اسجدوا للرّحمن يتظاهرون بأنّهم لا يعرفون لهذه اللّفظة معنى ، مع أنّهم أهل الفصاحة ، ويعرفون الأصل الّذي اشتقّت منه اللّفظة ، ويستعملون بعض الألفاظ القريبة المعنى منها العائدة إلى الأصل اللّغوي الواحد . ولكنّ القوم لا يرجون نشوراً ، هذه هي المصيبة الكبرى والطّامّة العظمى .

وختمت آيات القسم بأن عادت الى ما بدأت به من إشارة إلى اللّيل والنّهار ، وهما الشّق الأوّل للإطار المتعلّق بالمادة . ولآيتي هذا الشّق كبير علاقة بالشّقّ الثّاني من الإطار الّذي يتمثّل في آيتي السّماء والأرض . وكان النّصّ على البروج والشّمس والقمر ، لعلم العرب الدّقيق الكامل بها ، واعتمادهم الكلّيّ عليها . وإنّ الهدف الأكبر لهذا القسم هو أن يتذكّر البشر ويشكروا للّه تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، بعد تأمّل هذه النّعم وتدبُّرها .

ثمّ تحوّلنا إلى القسم الخامس والأخير الّذي تبيّن أنّه يتعلّق بثمرة الدّعوة إلى اللّه تعالى . وقد تمثّل ذلك في هيئة الحديث عن عدد من صفات عباد الرّحمن ، تتعلّق بسلامة الاعتقاد وبالعبادات والمعاملات والسّلوك أو الأخلاق . والمعروف أنّ مفهوم العبادة في الإسلام واسعٌ الى أبعد الدّرجات ، بحيث إنّ كلّ عملٍ يقوم به المؤمن وهو يريد به وجه ربّه الأعلى فإنّه مثابٌ عليه ويعتبر ذلك داخلاً في مفهوم العبادة . ومن هنا كانت العبادة في الإسلام شاملة كلًّا من المعاملات والسُّلوك .

وقد عنينا بتبيين مجموعة الأسباب في القسم السّابق الّتي هيّأت للحديث الخالص في هذا القسم عن عباد الرّحمن . فقد كان المنعطف

الواضح للاتّجاه هذه الوجهة جمع الآية الكريمة الّتي تحدّثت عن مهمّة الرّسول الكريم بين طرفيها العظيمين ، التّبشير والإنذار ، فلم تكتف بالإنذار فقط اكتفاء الآية الأولى من السّورة . ثمّ إنّ هذا القسم ذاته يتعامل في جملته ـ كما عرفنا ـ مع الرّاشدين ، الّذين يفترض أن تثمر فيهم الدّعوة الى اللّه ، ويبدو ذلك في هيئة التّذكّر أو الشّكر . ثمّ إنّ لفظة الرّحمن بالذّات ذكرت في نهاية القسم مرّات عدّة ، أكثر من أيّ اسم آخر من أسماء الذّات العلية الحُسْنى .

وإذا كانت أولى آيات القسم قد ذكرت صفتين معيّنتين من صفات عباد الرّحمن ، هما المشي والكلام ، فلأنّهما صفتان ظاهرتان بطبعهما وغير قابلتين للخفاء ، ولأنّهما الدّليل الشّافي على ما وراءهما من صفات حسنة ، ولأنّهما الثّمرة الطّبيعيّة الحسنة للكثير من المجاهدات ، وفي مقدّمة كلّ ذلك الصّلاة ، إذ يبيتون اللّيل ساجدين قائمين ، وإنّ اختيار نوافل الصّلاة ، الّتي تقام في خلوة عباد الرّحمن ، دليلٌ على أنّ الصّفتين الحسنتين للمشي والكلام طَبْع في القوم وسجيّة . وهم يعلمون علم اليقين أنّ دخولهم الجنّة بفضل اللّه تعالى ورحمته وليس بأعمالهم الصّالحة ، ما لم يتفضّل اللّه تعالى بقبولها ، ولهم في ذلك أسوة بسيد الخلق صلّى اللّه عليه وسلّم الّذي كان يصرّح بأنّه إنّما يدخل الجنّة إذا تغمّده اللّه تعالى برحمته وليس بعمله . لذا هم يدعون اللّه تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم . ويتحدّثون عن ذلك العذاب في لهجة العارف . وواضحٌ أنّ إيمان القوم بجهنّم وإشفاقهم منها جزءٌ من إيمانهم بعالم الغيب . والإيمان بالغيب من صفات المتّقين .

وبما أنّ الإسلام دينٌ ودنيا ويهدف الى إسعاد البشر في الدّارين ، فقد عنيت الآيات كذلك بسلوك القوم اقتصاديّاً واجتماعيّاً . فهم

مقتصدون في الإنفاق ، يمثّلون الأمّة الّتي أراد اللّه تعالى لها أن تكون وسطاً . وهم لا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه تعالى إلّا بالحق ، وبذلك هم يقيمون الحدود . وهم لا يزنون ولا يشهدون الزّور وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً . وهم متواضعون لا تأخذهم العزّة بالإثم مطلقاً ، فإذا ذكّروا بآيات ربهم خرّوا عليها سامعين مطيعين . وهم فوق ذلك حريصون على أن يكثر عدد المؤمنين المتّقين ، لذا هم يدعون اللّه تعالى أن يوفّقهم في اختيار الزّوجات الصّالحات ، كي يكنّ هنّ والذّريّة بعد ذلك قرّة أعين، وأن يوفّقهم أيضاً كي يكونوا الأسوة الحسنة للمتّقين.

ومع أنّ عباد اللّه تعالى قمّة في توحيده عزّ وجلّ ونظافة القلوب والمشاعر والسّلوك ، فإنّ الآيات الكريمة الّتي لا تكتفي بالوصف إنّما تهدف إلى التّوجيه أيضاً ـ كي يشعر كلُّ واحدٍ أنّ في إمكانه إذا سار في الطّريق الّذي ترشده إليه آيات الذّكر الحكيم ، أن يكون له حظٌّ ، يوماً ما ، في أن ينتسب إلى عباد الرّحمن ـ تعرض لكبار الذّنوب فتنفيها عن هؤلاء العباد ، بقصد لفت الانتباه إلى خطورتها ، وهي على التّوالي : الإشراك باللّه ، وقتل النّفس الّتي حرّم اللّه تعالى إلّا بالحقّ ، وجريمة الزّنا ، وشهادة الزّور ، وفي الوقت ذاته ، تفتح الآيات باب الأمل على مصراعيه بشأن مرتكبي هذه الكبائر. ومن باب أولى سواها، إذ ترشد إلى باب العودة إلى اللّه تعالى ، ذلك الباب الّذي قوامه التّوبة النّصوح والإيمان والعمل الصّالح .

وختمت السّورة الكريمة بالإشارة إلى ثواب عباد الرّحمن وجزاء المكذّبين . وهي إشارة تأخذ بسببٍ من صفتي التّبشير والإنذار في الآيتين الكريمتين اللّتين تطبعان السّورة بطابعهما . قال تعالى :

﴿ تبارك الذي نـزّل الفرقـان على عبده ليكـون للعالمين نـذيراً ﴾ وقـال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً ﴾ .

وصلّى اللّه وسلّم على سيّـدنا محمّـد وعلى آله وصحبـه أجمعين والحمد للّه ربّ العالمين .

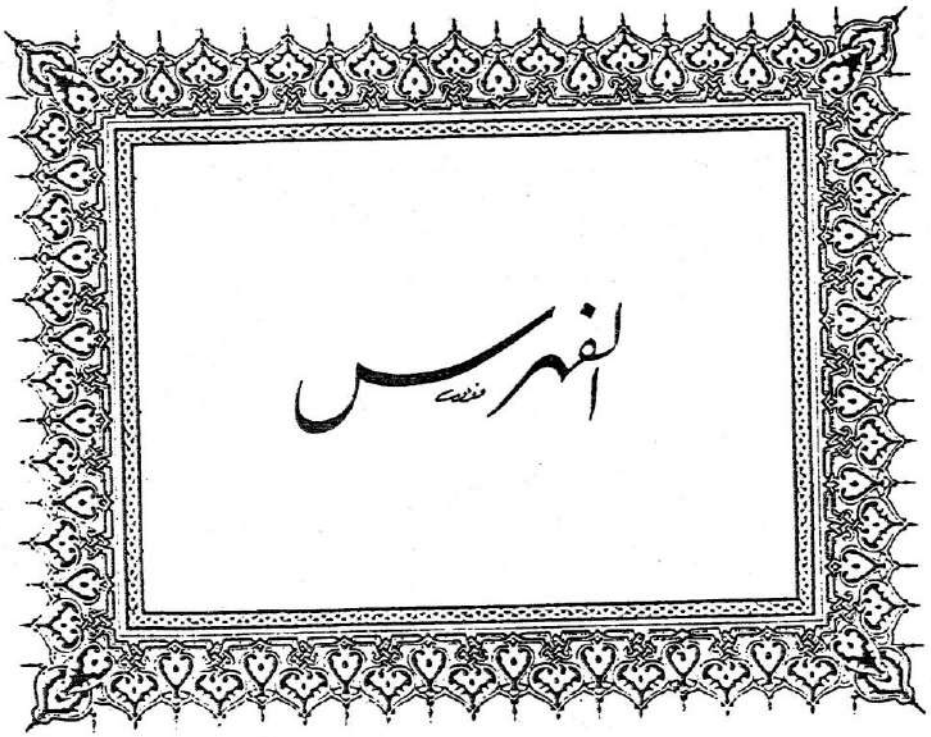
الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

المقدّمة ٧
الإهداء ١١
تمهيد ٢١

القسم الأول : محمّد ﷺ عبد الله ورسوله للعالمين ..... ٣١ ـ ٦٤

للّه تعالى وحده الخلق والأمر فهو المستحقّ للعبادة ٤٧
ما قال الكافرون عن الفرقان والرّدّ عليهم ٥٣

القسم الثاني : اعتراضات وردود ..... ٦٥ ـ ١٢٧

الاعتراضات الأربعة للكافرين على الرّسول الكريم ٧٠
ردّ القرآن الكريم على اعتراضات الكافرين وإنذارهم ٧٥
الرّدّ على الزّعم بكون الرّسول رجلاً مسحوراً ٨٠
الرّدّ على الحضّ بأن يُلْقى إلى الرّسول كنز أو تكون له جنّة ٨١
الرّدّ على الاعتراض بكون الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ١٠٠
الرّدّ على الحضّ بأن ينزل إلى الرّسول ملك فيكون معه نذيراً ١٠٤
الرّدّ على الحضّ بأن ينزل القرآن الكريم جملة واحدة ١٢٢

يحشر الكافرون على وجوههم إلى جهنّم ١٢٦

القسم الثّالث : الّذين لا يرجون النّشور لا يسمعون ولا يعقلون ..... ١٢٩ ـ ١٤١

القسم الرّابع : مِنْ آيات اللّه تعالى ..... ١٤٣ ـ ١٩٤

ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ١٤٩
اللّيل والنّهار ١٥٨
الرّياح والمطر ١٦٠
القرآن الكريم والرّسول العظيم ١٦٤
عذبٌ فرات وملحٌ أجاج ١٧٤
من الماء بشر ١٧٨
كان الكافر على ربّه ظهيراً ١٨٢
تسلية المصطفى ﷺ والتّسرية عنه ١٨٣
عودٌ على بدء ١٩٠

القسم الخامس : عباد الرّحمن ..... ١٩٥ ـ ٢٣٢

عباد الرّحمن يمشون هوناً ٢٠٢
عباد الرّحمن يقولون سلاماً ٢٠٥
عباد الرّحمن يبيتون سجّداً وقياماً ٢١٠
عباد الرّحمن مشفقون من عذاب جهنّم ٢١٢
عباد الرّحمن لا يسرفون ولا يقترون ٢١٤
عباد الرّحمن لا يدعون مع اللّه إلهاً آخر ٢١٥
عباد الرّحمن لا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ ٢١٨
عباد الرّحمن لا يزنون ٢٢١
جزاء مرتكبي الكبائر ٢٢٢

وسيلة نجاة مرتكبي الكبائر ٢٢٣
عباد الرّحمن لا يشهدون الزّور وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً ٢٢٥
عباد الرّحمن يخرون على آيات اللّه تعالى سامعين مبصرين ٢٢٧
عباد الرّحمن يدعون اللّه أن يهبهم قرّة أعين من جهة الأزواج
والذّرّيّة والأتباع ٢٢٨
جزاء عباد الرّحمن ٢٣٠
جزاء المكذّبين ٢٣١

الخاتمـــــة ..... ٢٣٣ ـ ٢٥٧

فهرست بأهمّ المصادر والمراجع

١ ـ ابن هشام ، السّيرة النبويّة ، تحقيق مصطفى السّقّا وابراهيم الأبياريّ وعبد الحفيظ شلبيّ ، الطّبعة الثّانية ، ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م القاهرة .

٢ ـ أبو حيّان (أبو عبد اللّه محمّد بن يوسف) البحر المحيط ، أوفست ، بيروت .

٣ ـ الزّمخشري (محمود بن عمر) الكشّاف ، حلبي ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٤ ـ النّدويّ (السيّد سليمان) الرّسالة المحمديّة ، الطّبعة الثالثة ، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م دمشق . نقله من اللّغة الأورديّة محمّد ناظم النّدويّ ، مدير الجامعة العبّاسيّة في بهاولبور .